

اجتهادات بحثاً عن نظرية

لا تنطلق الاتجاهات اليسارية غير التقليدية البازغة فى العالم الآن من نظرية أو فلسفة أو نسق فكرى متكامل، بخلاف سابقتها منذ أن ظهرت الفكرة الاشتراكية فى مطلع القرن التاسع عشر. حالة جديدة لا سابقة لها، بل تبدو عكس كل سابقتها منذ السان سيمونية والفايية، وحتى الاشتراكية الديمقراطية، مروراً بالماركسية فى نسخها المتعددة، وكذلك المراجعات التى حدثت لها.

سبقت الأفكار النظرية حركة اليسار فى تاريخ الاشتراكية طول القرنين الماضيين، بخلاف ما يحدث الآن، اتجاهات يسارية بازغة لا يجمعها إلا مواقف جذرية «راديكالية» ضد منظومات سياسية وأحزاب تقليدية جامدة، وتطلع إلى وضع حد للتفاوت الاجتماعى المتزايد.

يعتقد من يتبنون هذه الاتجاهات أنهم يستطيعون تحقيق تغيير يطمحون إليه دون دليل نظرى.

ويرى بعض آخر فى أوساطهم أن عصر النظريات والفلسفات الكبرى انتهت.

وقد يكون هذا الذى يراه هؤلاء وأولئك صحيحاً فى اللحظة التاريخية الراهنة. لكن حركتهم، التى لا يعنون فيها بالتنظير، تسهم دون قصد فى تحقيق تراكم قد يفضى إلى ظهور نظرية أو نظريات اشتراكية جديدة ربما يبحث عنها بعض أنصار هذه الاتجاهات، ولكن دون وعى.

وقد بدأت حركة الاتجاهات اليسارية هذه فى تحفيز مثقفين للسعى إلى بلورة أفكار جديدة، مثل تلك التى طرحها الأمريكى الشاب بهسكار ستكارا فى كتاب سماه «المانفستو الاشتراكى- قضية السياسة الراديكالية فى عصر اللامساواة الشديدة».

ويعد هذا «المانفستو» مؤشرا إلى حاجة اليسار غير التقليدى البازغ إلى أفكار نظرية، ولكنه لا يفيد فى سد هذه الحاجة. نجد فى بعض أفكاره ما تجدر مناقشته، ولكن فكرة الإدارة المركزية للنشاط الاقتصادى العام تُضعف قيمته، لأنها اختبرت بما يكفى.

وفضلا عن ما آلت إليه تطبيقاتها فى القرن الماضى، فقد تجاوزها عصر ثورة الاتصالات والاقتصاد الرقمى، ولم تعد ملائمة لتفكير أجيال جديدة ترغب فى توسيع نطاق اللامركزية إلى أقصى حد، ويصعب أن تلتفت إلى أفكار تجاوزها التاريخ.

لكن «مانفستو» ستكارا لن يكون نهاية المطاف فى البحث عن نظرية، أو نظريات، ملائمة، لاتجاهات يسارية تركت وراءها تراث الفكر الاشتراكى بروافده المختلفة.